

* * *

فَاطِمَةُ الزَّهْراء

رَضِيَ اللّٰهُ عَنها

نجلاء شوقى حسن

فاطمة الزهراء

خرَجتْ شَيماءُ ووالِدَتُها من مسجدِ السَّيِّدةِ زَينب مَسرورَتَيْن ، بعد أن أدَّتا صَلاةَ العِشاءِ جَماعَة ، فتلكَ هي المَرَّةُ الأولَى الَّتي تَصحبُها فيها والِدَتُها للصَّلاةِ في المَسجد .

سألتْ شيماءُ والِدَتَها : أَعلمُ يا أُمّي أنَّ السَّيِّدةَ زَينَب ـ رضِيَ اللّهُ عَنها ـ هي من بَيتِ رَسولِ اللّه ـ صلَّى اللّهُ عليهِ وسلَّم ـ وهذا كلُّ ما أعرِفُه عنها . فبنتُ من هِي يا أُمّي ؟

قالتْ والدَتُها : هي بنتُ سيِّدِنا عَليٍّ بنِ أبي طالِب ـ رَضِيَ اللّهُ عنه ـ من زَوجَتِه السَّيِّدَةِ فاطِمَةَ الزَّهراء ، بنتِ رَسولِ اللّه ـ صلَّى اللّهُ عليهِ وسلَّم ـ وهذا يَعني أنَّ

السَّيِّدةَ زَينَب ، هى حَفيدَةُ رَسولِ اللّه ، ورَسولُ اللّهِ جَدُّها .

قالتْ شَيماء : هلاّ حَكيتِ لى يا أُمّى قِصَّةَ حياةِ أمِّها السَّيِّدةِ فاطِمَةَ الزَّهراء ، كيفَ عاشَتْ ومن تزوَّجَت ؟

قالتْ والِدَتُها : السَّيِّدةُ فاطِمَةُ الزَّهراء ــ رَضِىَ اللّهُ عَنها ــ هى سيِّدةُ نِساءِ العالَمين ، وأُمُّها هى أمُّ المُؤمِنينَ السَّيِّدةُ خَديجةُ بنتُ خُويلِد ــ رَضِىَ اللّه عَنها ــ زوجةُ رَسولِ اللّه ــ صلّى اللّهُ عليهِ وسلّم ــ وسيِّدةُ نِساءِ أهلِ زَمانِها . وُلدتْ السيدة فاطمة قبلَ البعثَةِ المُحمَّديَّةِ بخَمسِ سَنَوات . ويُذكّرُنا يَومُ مَولدِها بحادِثَةٍ جَرتْ فى مَكّة ، كادتْ تُشعلُ الحربَ بينَ أهلِها بعضِهم وبَعض . وتَتعلّقُ هذه الحادِثةُ بعَمليَّةِ تجديدِ بناءِ الكَعبة ، إذ طغَى سيلٌ جارِفٌ على الكَعبةِ فصدَّعَ جُدرانَها ، وهدَّدها بالسُّقوط ، فقامتْ قُريشٌ بهَدمِها وإعادَةِ بنائِها من جَديد .

فلمّا تمَّ بِناؤها وأرادوا وضعَ الحَجرِ الأسْود ، اخْتَلفَ أشْرافُهم فيمَن يَقومُ بوَضعِهِ فى مَوضِعِه ، وتَنافَسوا فى ذلك واشتَدَّ خِلافُهم ، حتّى كادتْ تشُبُّ نارُ الحَربِ بينَهم ، فجرَّدوا السُّيوف ، ووقَفتْ كلُّ قَبيلَةٍ تَتحدَّى الأُخرى .

فقامَ أُميَّةُ بن المُغيرَة ، وكانَ أكبرَ النَّاسِ سِنًا ، وخطبَ فيهم : لا تَختَلِفوا يا قَوم ، واجْعلوا حَكمًا يَقضى بينَكم فيما تَختَلِفونَ فيه .

فقالوا : نكِلُ أمرَنا لأوَّلِ داخلٍ من بابِ الكَعبَة .

وفيما هم يَنتَظِرون ، إذ دخلَ من بابِ الكَعبَةِ مُحمَّد — صلّى اللّهُ عليهِ وسلّم — وكانَ فى الخامِسةِ والثّلاثينَ من عُمرِه ، فاطْمأنّوا جَميعا إليهِ لِما يَعهَدونَ فيهِ من الأَمانةِ والصِّدقِ ورَجاحَةِ العَقل . وقالوا : هذا مُحمَّدٌ الأَمين . رَضيناهُ حَكمًا يَقضى بينَنا .

وأخبَروه بِما اخْتَلفوا فيه ، وطَلبوا منه أن يَحكُمَ بَينَهم .

ففكَّر مُحمَّدٌ بُرهَة ، ثم بَسَط رِداءَه على الأَرض ، ورفعَ الحجرَ الأسودَ ووضَعهُ فوقَ الرِّداء ، ثمَّ دَعا رُؤساءَ العَشائرِ أنْ يَأخُذَ كلٌّ مِنهم بطَرفٍ من أطرافِ الرِّداءِ الأربعَة ، ورَفعوهُ حتّى وَصلوا إلى المَكانِ الّذى سيوضَعُ فيهِ الحَجرُ الأَسوَد ، فرَفعه مُحمَّدٌ بيَديه ، ووَضعَه فى مَكانه .

وبهذا التّصرُّفِ الحَكيم ، انتهت المُشكِلةُ الّتى كادتْ تُؤدّى إلى إراقَةِ الدِّماء ، وانتشرَ الخبرُ فى أنحاءِ مَكّةَ بعَودَةِ السَّلامِ بينَ أهْلِها ، وسُرَّ النّاسُ بحِكمَةِ مُحمَّدٍ الأمين .

ولَمّا عادَ مُحمَّدٌ إلى بَيتِه ، تلقّى خبرَ مَولِدِ ابْنَتِه فاطِمَة ، وكانتِ ابنته الرّابعَةَ وآخرَ أولادِهِ من السَّيِّدةِ خَديجَةَ بنتِ خُويلِد . وقد لُقّبتْ بالزَّهراءِ لبَياضِ وَجهِها ، وما يَتلألأُ فيهِ من أنْوار . وكانتْ فاطِمةُ الزَّهراء ، كما تَصِفُها أمُّها أمُّ المُؤمنينَ السَّيِّدةُ عائِشَة ، بقَولِها : ما رأيتُ أحدًا من خَلقِ

اللّه ، أشبَهَ بحديثِهِ وكلامِهِ برَسولِ اللّه ـ صلّى اللّهُ عليهِ وسلّم ـ من ابْنتِهِ فاطِمةُ الزَّهراء .

وكانَ رَسولُ اللّه ـ صلّى اللّهُ عليهِ وسلّم ـ يقولُ عن فاطِمَةَ : (من أرضَى فاطِمةَ فقد أَرضَى اللّه ، ومنْ أغضَبَها فقد أغضَبَ اللّه . وإنَّ فاطِمةَ بِضعَةٌ مِنّى ، يَسرُّنى ما سَرَّها ، ويُغضِبُنى ما أغضَبَها) .

وهكذا تَمتّعت فاطِمةُ الزَّهراءُ بحُبِّ أَبَويْها وأَخَواتِها ، وكانَ رسولُ اللّه ـ صلّى اللّهُ عليهِ وسلّم ـ يَشمَلُها برِعايَتِه وحَنانِه ، حتّى تشبَّعتْ منذُ نُعومَةِ أظْفارِها بأخْلاقِ النُّبوَّة ، ونورِ الحِكمَة ، ومَكارِمِ الأخْلاق .

وقد أُصيبَت فاطِمةُ الزَّهراء ، فى صِغَرِ سِنّها بِما أصابَ المُسلِمينَ فى أثناءِ حِصارِ قُرَيشٍ لهم فى شِعبِ أبى طالِب ، من جوعٍ وألم ، كما شَهِدت الصِّراعَ القائمَ بينَ الحقِّ والباطلِ ، بينَ أبيها رَسولِ اللّه ـ صلّى اللّهُ عليهِ وسلّم ـ

وبينَ كُفَّارِ قُرَيش ، فرأتْ تَكذيبَهم لـه ، وقَسـوتَهم عَليـه ، مِمّا جعلَها تَبكى وتتألّم . وزادَ من بُكائِها وألَمِها وفاةُ أمِّها السَّيِّدةِ خَديجَة ـ رضِيَ اللّه عنها ـ فوجـدتْ نَفسَها بعـدَ زَواجِ أخَواتِها زَينبَ ورُقَيَّةَ وأُمِّ كُلثوم ثمّ مَوتِ أُمِّها ، أمـامَ مَسئولِيّاتٍ كَبيرَةٍ مَطلوبَةٍ مِنها نَحوَ أَبيها الرَّسول الكريـم ، وهـو يَمـرُّ بظُـروفٍ عَصيبَـة ، لفَقـدِهِ أمَّ أولادِهِ وشَـريكَةَ حَياتِه ، ومُعاناتِه مما يُلاقيهِ علَى أيدى كُفّارِ قُرَيش .

راحتْ فاطِمةُ الزَّهراء ، وهىَ أصغَرُ أخَواتِها ، تَقومُ على خِدمَةِ أَبيها ورعايَتِهِ والتَّخفيفِ عنه ، ورَسولُ اللّه ـ صلّـى اللّهُ عليهِ وسلَّم ، يُغدِقُ عليها من حُبِّهِ وحَنانِه .

إلى أن هاجَرَ المُسلِمونَ من مكَّـةَ إلى المَدينَـة ، واسـتَقَرّوا فيها بعدَ هِجرَةِ النَّبىِّ وصاحِبِهِ أبى بَكرٍ الصّديقِ إلى المَدينَة . وتَزوَّج الرَّسول ـ صلّى اللّهُ عليهِ وسلّم ـ السَّـيِّدةَ عائِشَـةَ بنتَ أبى بَكرٍ الصّديق ـ رَضِـيَ اللّـه عَنهـا ـ فتقـدَّمَ كِبـارُ

الصَّحابَةِ يَخطبـونَ إليـه السَّيِّدَةَ فاطمـةَ الزَّهـراء ، بعـدَ أن كانوا يُحجِمونَ عن طَلَبِ يَدِها ، حيثُ كـانت تَقـومُ علـى خِدمَةِ أبيها ورِعايَتِه ، فاختارَ لها أبوها ابنَ عَمِّهِ الإمامَ علـيَّ بنَ أبى طالب . فلمّا ذهبَ رسولُ اللّهِ إلى فاطِمـةَ الزَّهـراءِ لِيُخبِرَها ويَعرِفَ رَأيَها فى عَلِيّ - رضِيَ اللّه عنه - صَمتَـت فى خَجلٍ وحَيـاء ، وكـانَ فـى صَمتِهـا علامَـةُ القَبـولِ والرِّضا . فخرجَ رسولُ اللّه - صلّى اللّهُ عليهِ وسلّم - إلى ابنِ عمِّهِ عليِّ بنِ أبى طالب ، فبشَّرَه بقَبولِها زَواجَه . كمـا أعلَن عَلى أصْحابِهِ خِطبةَ ابنَتِهِ الزَّهراء .

وكان الإمامُ عليّ - كرَّمَ اللّه وجهَه - فقـيرًا لا يَمتَلِـكُ شَيئا ، فطلـبَ منـهُ رَسـولُ اللّـهِ أن يَبيـعَ دِرعَـه ، لِيُجهِّـزَ العَروسَ بثَمنِها . فلمّا تَزوَّجتْ فاطِمةُ الزَّهراءُ عليَّ بنَ أبـى طالِب الفَقيرَ الّـذى لا يَمتلِـكُ شَـيْئا ، عاشَـتْ معـهُ عِيشَـةً

قاسِيَةً خشِنَة ، ليسَ فيها أيُّ نوعٍ من مُتَعِ الحَياة ، فشَعرتْ في مَنزِلِ الزَّوجيَّةِ بالحِرمان .

وذاتَ صَباحٍ ذَهبتْ إلى أَبيها رَسولِ اللّه ـ صلّى اللّهُ عليهِ وسلّم ـ وقالَت له :

ـ أَهانَتْ عليكَ ابنتُك يا أبتَاه ، حتّى تُزوِّجَها من رَجُلٍ فَقير ؟

فنظرَ إليها النّبيُّ في عَطفٍ وقالَ لها : يا فاطِمةُ لقد زَوَّجتُكِ من أعظمِ الرِّجالِ وأَفضلِهم وأكرَمِهم مَقامًا عِندَ اللّه .

وراحَ صَلواتُ اللّهِ وسَلامُه عليه ، يُعدِّدُ لابْنَتِهِ فاطِمَةَ الزَّهراء ، فضائِلَ عَلِيّ ـ كرَّمَ اللّه وجهَه ـ ودَورَه البارِزَ في نُصرَةِ الإسْلام .

ثمَّ قالَ لها : فأيُّ امرأةٍ في قُريشٍ لَها زَوجٌ عالِمٌ شُجاعٌ فارِس ، كزَوجِكِ عَلِيّ ؟

فاسْتراحتْ فاطِمـةُ الزَّهـراءُ لكَـلامِ أَبيهـا ، ورَجعـتْ إلى دارِها ووَجهُها يَفيضُ بِشرًا وأمَلا وابْتِهاجا .

وبعـدَ عـامٍ مـن زَواجِهـا أَنجبـتْ فاطِمـةُ الزَّهـراءُ الحَفيـدَ الأَوَّلَ لرَسولِ اللّه ـ صلّى اللّـهُ عليـهِ وسـلّم ـ ففَـرِحَ بـهِ فرحًا كَبيرًا ، وسمّاه الحَسَن .

ثمَّ أنجبتْ بعدَه الحَفيدَ الثَّانى له فسَمّاه الحُسَين .

ثم أنجَبتْ بَعدَهما زَهرةَ بنى هاشِـم ، الزَّهـرةَ الَّتـى تَنعـمُ بطيبِ شَذاها من بَيتٍ كُلُّه رَياحينُ وزُهـورٌ عطَّـرتِ الدُّنيـا جَميعا . إنَّهـا السَّيِّدةُ زَيـنَـب ، بنـتُ الإمـامِ عَلـىٍّ بـنِ أبـى طالِب ، وقد وُلِدت ـ رَضِيَ اللّه عَنها ـ فى السَّنةِ الخامِسَةِ لِلهجرَةِ النَبوِيَّة المُشرَّفَة ، بعدَ مولِدِ أَخيها الحُسَيْن بعامَيْن .

ثمَّ رُزِقَت السَّيِّدةُ فاطِمةُ الزَّهراءُ بزَهرةٍ رابِعَـة ، أسَـمتْها أمَّ كُلثوم .

وفى يومٍ كانَ رَسولُ اللّه ـ صلّـى اللّـهُ عليـهِ وسـلّم ـ عِندَ زَوجتِـهِ أُمِّ سَلَمة ـ رَضِـيَ اللّـه عنهـا ـ فدَعـا عَليًّـا وفاطِمَةَ والحَسَنَ والحُسَين وقال : اللّهـمَّ هَـؤلاءِ أهـلُ بَيتـى وخاصَّتى ، اللّهمَّ أَذهبْ عَنهم الرِّجسَ وطَهِّرهُم تَطهيرا .

وقد تَمتّعت فاطِمةُ الزَّهـراءُ بحُبِّ أبيهـا ، وعـبَّر رَسـولُ اللّه ـ صلّى اللّـهُ عليـهِ وسـلّم ـ عـن حُبِّـهِ العَظيـمِ لابْنَتِـهِ فاطِمَةَ حينَ قال :

ـ خيرُ نِساءِ العالَمينَ أرْبَع : مَريَم ، وآسِيَة ، وخَديجَة ، وفاطِمَة .

وقد مرَّتِ السَّيِّدةُ فاطِمة ـ رَضِيَ اللّه عَنها ـ بـأحْداثٍ كَثيرَة ـ ذُكِرتْ فى السِّيرَةِ النَّبوِيَّة ـ بينَ أفْـراحٍ وأحْـزان ، منذُ وَفاةِ أمِّها خَديجَة ـ رَضِيَ اللّه عَنها ـ ثُـمَّ وفـاةِ أُختِهـا السَّيِّدةِ رُقَيَّةَ زَوجَةِ عُثمانَ بنِ عفّان ، ثُمَّ وَفاةِ أُختِها زَيـنَـبِ الكُبرَى ـ رَضِيَ اللّهُ عَنها فى السَّـنةِ الثامِنَـةِ لِلهِجْـرة ، ثُـمَّ

وَفاةِ أُختِها أُمِّ كُلْثوم ـ رَضِيَ اللّه عَنها ـ بعدَ عامٍ من وَفاةِ زَينَب ، فكانَت دائِمًا صابِرَةً مُحتَسِبة .

وعندما سَمِعتْ فاطِمةُ الزَّهراءُ بمَرضِ أبيها ـ صلّى اللّهُ عليهِ وسلّم ـ هُرِعتْ إليه . فلمّا دَخلتْ عَليهِ وَجدتْهُ على فِراشِه ، فأخذَ بيَدِها وأجْلَسَها بجانِبه ، ثمَّ قال لَها حديثًا فبكتْ ، ثمَّ قالَ لها حَديثًا آخرَ فضَحِكت . وظَلّت فاطِمةُ إلى جِوارِ أبيها حتّى انْتَقلَ الرَّسولُ الكَريمُ إلَى الرَّفيقِ الأَعلَى ، فبَكتْهُ في لَوعَةٍ وأَسًى بكاءً مُرًا ، وبكَى عليه عَليّ ـ رَضِيَ اللّه عنه ، كما بكَى المُسلِمونَ جَميعًا رَسولَ اللّه ـ صلّى اللّهُ عليهِ وسلّم .

وبعدَ وَفاةِ النّبيّ ـ صلّى اللّهُ عليهِ وسلّم ـ سألتْ السَّيِّدةُ عائِشةُ أُمُّ المُؤمِنين ـ رَضِيَ اللّه عنها ـ فاطِمةَ عمّا جَعلَها تَبكى ثُمَّ تَضحك ـ وقتَ أنْ كانتْ جالِسَةً بجِوارِ أَبيها ، فقالَتْ لها :

ـ قالَ لى أبى : إنَّ جبريلَ كانَ يُدارِسُنى القُرآنَ فى كلِّ سَنةٍ مرَّة ، وأنّه دارَسنى هذا العامَ مرَّتَيْن . وما أَراهُ إلاَّ قد حضَرَ أَجلى .

قالتْ : فبَكيتُ أَبى . ثمَّ قال لى : وإنّكِ أوَّلُ أهْلى لُحوقًا بى ، ونِعمَ السَّلفُ أنا لكِ ففَرِحْت .

واخْتفت الابْتِسامَةُ من وَجهِ السَّيِّدَةِ فاطِمةَ الزَّهراء ، ولكن بَقِيَ الإيمانُ والتّقوَى ، ووَضاءةُ العِبادَةِ تَملأُ وَجهَها الطُّهورَ نورا وجَلالا ومَهابَة .

* * *

وجَلستِ الزَّهراءُ فى بَيتِها تُصلِّى وتَقرأُ القُرآنَ وتَتعَبَّد ، وكانَ الإمامُ علىّ ـ كرَّم اللّه وجهَه ـ يُواسيها بكَلِماتِه الرَّقيقَة ، كما كانَ الحَسنُ والحُسينُ يُضيفانِ على البَيتِ عَبيرًا من رائحَةِ جَدِّهما العَظيم ، ويُدخلانِ الأُنسَ علَى قَلبِ الأُمِّ الحَزينَة ، الّتى واجَهتِ المَشاكلَ الكَثيرَة بعدَ

مَوتِ النَّبِىِّ ـ صلَّى اللّهُ عليهِ وسلَّم ـ . ومرَّتِ الأيّامُ بَطيئَةً بالزَّهراء ، ثمَّ أَحسَّتْ بالمَرضِ يُداهِمُها ويَستلُّ مِنها بَصيصَ العافِيَةِ الخافِت . وكانَ جَسدُها النَّحيلُ لا يَحتمِلُ المَرضَ فصَبرتْ على آلامِ العِلَّة ، ثمَّ أفضتْ لزَوجِها الإمامِ عَلىٍّ بأنَّها فى طَريقِها إلى الدّارِ الآخِرَة ، فبكَى طَويلا حتّى كادَتْ عَيناهُ تَبيَضّانِ من الحُزْن . وعلِمَ الحَسنُ والحُسَينُ كَذلِك بأنَّ أُمَّهُما ستُغادِرُ الحَياة . فاغْرورَقَت أعْيُنُهما بالدُّموع . ودارَ هَمسٌ فى المَدينَةِ بأن آخِرَ أوْلادِ الرَّسولِ ـ صلّى اللّهُ عليهِ وسلَّم ـ سَتلحَقُ بهِ قَريبا .

وفى لَيلةٍ من لَيالى شَهرِ رمَضان ، اغْتَسلتْ وصلَّت رَكعَتَين ، وفاضَت روحُها الطّاهِرةُ فى السَّجدةِ الأَخيرَةِ ، بعدَ وفاةِ أبيها ـ عَليه الصَّلاةُ والسَّلام ـ بنَحوِ سِتَّةِ أشْهُر . ويا لَها من لَحَظاتٍ نورانِيَّة فاحَت خِلالَها رَوائحُ أَزكى منَ المِسْك ، حينَ حَمَلتْ مَلائِكةُ الرَّحمةِ روحَ الزَّهراء ،

وصَعدتْ بِها إلى السَّماء . وما هى إلا ساعَةٌ حتَّى كان الإمامُ عَليّ ـ كرَّم اللّه وجهَه ـ قد قامَ بدَفنِها ، ورجعَ يَستقبِلُ العَزاءَ فيها .

وجدَّد مَوتُ الزَّهراءِ حزنَ المُسلمينَ على أبيها ـ صلّى اللّهُ عليهِ وسلّم ـ ولبثتِ المَدينَةُ حَزينةً حُزنًا شَديدًا على الزَّهراء ، فَترةً منَ الزَّمَن .